كلية: الآداب

القسم أو الفرع: اللغة العربية

المرحلة: الدراسات العليا/ الدكتوراه

أستاذ المادة: أ.د.ارميض مطر حمد

اسم المادة باللغة العربية: الخطاب النقدي والبلاغي

اسم المادة باللغة الإنكليزية:

اسم المحاضرة العاشرة باللغة العربية: تأصيل مصطلح التشاكل

اسم المحاضرة العاشرة باللغة الإنكليزية:

محتوى المحاضرة العاشرة

تأصيل المصطلح

ينحدر مصطلح التشاكل من الجذر اللغوي (شَكَلَ)، وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى المماثلة كما في

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[2]، أي « ما يوافق طريقته، وطبيعته، ومذهبه، واعتقاده»[3].

أمّا في المعاجم اللغوية، فقد ورد في العين بمعنى المماثلة، فقيل: « فلان شكْلُ فلان، أي: مثله»[4]، والشَّكل ورد في جمهرة اللغة بمعنى « المِثل والشِّبه، بِفَتْح الشين هَذَا شَكْل هَذَا، أَي مثله وَهَذَا من شَكل هَذَا، أَي من جنسه»[5].

أمّا في الصحاح فقد ورد بالمعنى نفسه فـ «الشَكْلُ بالفتح: المِثْلُ، والجمع أَشْكالٌ وشُكولٌ. يقال: هذا أَشْكَلُ بكذا، أي أَشْبَه»[6]. وبالمعنى نفسه عند ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)[7]، وأبي هلال العسكري[8]، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)[9]، أمّا ابن منظور (ت ٧١١هـ) فقد حدّه بالشبه والمثل، واستشهد بقول « أبي عبيدة:

فلا تَطلُبَا لي أَيِّمًا إن طَلَبْتُما فإن الأَيَامَى لَسْنَ لي بشُكُولِ

وقد تَشَاكَلَ الشَّيْئَانِ وشَاكَلَ كُلُّ واحد منهما صاحبَه»[10].

وفي موطن آخر قال: « هذا من شَكْل هذا أَي: من ضَرْبه ونحوه، وهذا أَشْكَلُ بهذا، أَي: أَشْبَه،

---

(1) سورة ص: ٥٨.

(2) سورة الإسراء: ٨٤.

(3) أوضح التفاسير: ٣٤٧.

(4) العين: ٢٩٥/٥.

(5) جمهرة اللغة: ٨٧٧/٢.

(6) الصحاح، مادة (شكل).

(7) معجم مقاييس اللغة مادة (شكل).

(8) الفروق اللغوية: ١٥٥.

(9) أساس البلاغة: مادة (شكل).

(10) لسان العرب: مادة (شكل).

والمُشَاكَلَة: المُوافَقة والتَّشاكُلُ مثله، ... وشاكِلَةُ الإِنسانِ: شَكْلُه وناحيته وطريقته»[١١]، ولم يخرج الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) عن هذ الفهم[١٢].

وتقتضي آليات التأصيل للمصطلح تتبع أصوله في المواطن جميعها؛ لذلك نحطّ عصا الترحال في رحاب الشعر العربي الذي أقرَّ هذا المصطلح وحدّد مفهومه عن طريق نخبة من الشعراء تمَّ اختيارهم؛ ليكونوا نواة لبحث جذور مفهوم (التشاكل).

فهذا أبو نواس (ت ١٩٨هـ) يقول:

فاحبسْ يديْكَ عن التي بقيَتْ بها نفسٌ تشاكلُ أنفُسَ الأحْياءِ[١٣]

أمّا ابن الرومي (ت ٢٨٣هـ) فقد ورد المصطلح عنده بمعنى المماثلة في موضعين من شعره، قال:

أبا الفياض دونك مُحْكَمَاتٍ نُظِمْنَ على التشاكل والتَّواخي[١٤]

أراد القول: إنَّ ما صدحت به حنجرتي من نظم في مدحك كان محكم النسج، ألفاظه تتجاذب العناق ومعانيه، أي أنّها متوافقة في أدائها، وبالمعنى نفسه ورد المصطلح في قوله:

وَلْتَكُ أنفاسه تشاكل ذكـ ـراك وحسبي بطيبها وكفى[١٥]

ويطالعنا المتنبي (ت ٣٥٤هـ) قائلًا:

وَأتْعَبُ مَنْ ناداكَ مَنْ لا تُجيبُهُ وَأغيَظُ مَنْ عاداكَ مَن لا تُشاكلُ[١٦]

فالمتنبي – هنا – يخاطب سيف الدولة، قائلًا: إنَّك في عدم إجابتك إياهم تثير غضبهم وتتعبهم، الأمر الذي يضطرهم إلى مناداتك علَّك تجيبهم فتشفي غليلهم، كما أنّك لا تعارض أو تأبه لأعدائك؛ لأنّهم

---

(١١) نفسه: مادة (شكل).

(١٢) تاج العروس: مادة (شكل).

(١٣) ديوان أبي نواس: ٥٢٦.

(١٤) ديوان ابن الرومي: ٥٧٩/٢.

(١٥) ديوان ابن الرومي: ١٥٨١/٤.

(١٦) ديوان المتنبي شرح البرقوقي: ١٧١/٢.

دونك في المكانة والشأن، فضلًا عن كونهم لا يشابهونك في القوة والصلابة، لذلك تترفع عن معاداتهم، فالتشاكل في بيت المتنبي جاء بمعنى (المشابهة).

وبالمعنى نفسه ورد عند كشاجم (ت ٣٦٠هـ)، فقال:

تشاكلَ خُلقُهُ والخلقُ منهُ فباطنهُ وظاهرهُ شبيه[١٧]

وهذا صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) يقول:

فثبْ كلّ يَومٍ إلى قَهوَةٍ تشاكَلُ كاساتُها في الصّفاءِ[١٨]

أمّا في تراثنا الأدبي فإنَّ مفهوم (التشاكل) لم يبعد كثيرًا عمّا حدَّده اللغويون والشعراء، إلّا أنَّ النظرة الفاحصة في المظان المختلفة سواء أكانت تلك النظرة في كتب الأصول أم في النحو أم في الكتب الأدبية، تجد هذا المفهوم شاخصًا ومعزّزًا بما يثبت المقصود منه على الرغم من تعدد مرادفاته كالمماثلة، والتشابه، والتناسب، والتلاؤم، والائتلاف ... إلخ.

ولكي يكون القارئ على بيّنة من أمره ويقرّ أنَّ هذا المصطلح له جذوره المتأصلة في التراث العربي نتأمل ما خرّجه الخطابي (ت ٣٨٨هـ) عندما فسّر قول الرسول مُحَمَّد (ﷺ): (الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَف)[١٩]، قائلًا: « إنَّ الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا فتأتلف، وتختلف على حسب ما جعلت عليه من التشاكل أو التنافر»[٢٠].

ورد التشاكل – هنا– بمعنى الائتلاف المضاد للتباين والاختلاف، وهذا ما أكّده الخطابي في مواطن أخرى من أنّ الحديث يحتمل أنْ يكون إشارة إلى مفهوم التشاكل بين الأرواح في حالتي الخير والشر،

---

(١٧) ديوان كشاجم: ٤١٤.

(١٨) ديوان صفي الدين الحلي: ٥٢٧.

(١٩) صحيح البخاري: ٣٣٣٦.

(٢٠) معالم السنن: ١١٥/٤.

والصلاح والفساد، «وإنّ الخيّر من الناس يحنّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره»[٢١].

وجاء مفهوم التشاكل عند أبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) بمعنى الائتلاف والتوافق، وآية ذلك قوله : « وَقد تَجِيء آي السُّور مَبْنِيَّة على ضرب من التشاكل مُتَّفق غير مُخْتَلف، وَقد تَجِيء على ضَرْبَيْنِ مُخْتَلفين، وعَلى أضْرب مُخْتَلفَة، وَقد يخْتَلط ذَلِك التشاكل بعضه بِبَعْض»[٢٢].

أمّا الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) فيرى التشاكل إمّا أنْ يكون في الهيئة أو الطباع أو السلوك؛ لذلك أورد تحديدًا لسؤال بعضهم عن الإخوان، فقال: «إنّها الموافقة في التشاكل»[٢٣].

ولم يخرج الكرماني (ت ٥٠٥هـ) عن هذا التحديد عندما نظر في الحواميم، فرأى انَّ التشاكل هو الاتفاق والملاءمة بين شيئين؛ لذلك سمّيت السور السبع (حم) « على الاشتراك في الاسم لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به، وهو أنَّ كلّ واحدةٍ استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب، مع تقارب المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام»[٢٤]، والأمر نفسه عند البغوي (ت ٥١٦هـ)[٢٥].

نفهم من ذلك كلّه أنَّ المفاهيم التي تندرج تحت مسمى التشاكل تشير إلى التوافق والانسجام والائتلاف؛ لأنَّ المغايرة بين شيئين تسهم في خلق فجوة ومسافة توتر بين طرفيه، وبذلك ينعدم التشاكل ويتلاشى، لذا وجدنا أبا البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) في إنصافه يرى أنَّ حذف إحدى الهمزتين من (أكرم) لأجل التسهيل؛ لأنَّ الأصل فيه (أؤكرم) فكرهوا اجتماع هاتين الهمزتين، فاكتفوا بهمزة واحدة، فشمل ذلك سائر الأفعال على هذه الشاكلة، بغية « تحصيل التشاكل والفرار من نَفْرة الاختلاف، فكذلك ههنا حملوا الماضي على المضارع، وبل أولى، وذلك لأنَّ مراعاة المشاكلة بالقلب أَقْيَسُ من مراعاة

---

(٢١) غاية الأماني: ١٠٨/٢.

(٢٢) البيان في عدّ آي القرآن: ١١١.

(٢٣) محاضرات الأدباء: ٥/٢.

(٢٤) غرائب التفسير وعجائب التأويل: ١٠٣٧/٢.

(٢٥) شرح السنّة: ٥٧/١٣.

المشاكلة بالحذف...»[٢٦].

فالملاحظ أنَّ أبا البركات الأنباري أورد المصطلحين معًا (التشاكل) و(المشاكلة)؛ للتدليل على التوافق في الأصل وما تؤول إليه الكلمة.

وبالمفهوم نفسه ورد المصطلح عند ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ولا سيما في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[٢٧]، فرأى أنَّ اختلاف الألسنة يعني اللغات من العربية والعجمية، فذكر اللسان على سبيل المجاز المرسل؛ لأنَّ اللسان آلة التكلم، أمّا الألوان فهي شتّى من أبيض، وأسود، وأحمر، على الرغم من نشأتهم من صلب رجل واحد، لذا قيل: «المراد باختلاف الألسنة: اختلاف النَّغَمات والأصوات، حتى إنَّه لا يشتبه صوت أخوين من أب وأم، والمراد باختلاف الألوان: اختلاف الصُّوَر، فلا تشتبه صورتان مع التشاكل»[٢٨]، فالتشاكل هنا بمعنى الاتفاق بين الصورتين.

أمّا فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) فهو الآخر له نظرة في هذا المفهوم قائمة على أساس التآخي بين الطرفين سواء أكان على مستوى اللفظ أم المعنى، لذلك وضعه تحت مسمى (مراعاة النظير) مراعيًا بذلك الجمع بين الأمور المتناسبة[٢٩]، وتبعه السكاكي[٣٠] والقزويني[٣١] وشرّاح تلخيصه[٣٢].

أمّا في كتاب (اللباب) فورد المصطلح بمعنى التوافق والمجانسة، ولا سيّما إذا حصل التقارب بين صوتين من مثل (السين) و(الصاد)، و(الصاد) التي يأتي بعدها (الدال)، « فَمن الْعَرَب من يُخْرِجها على أَصْلهَا

---

(٢٦) الإنصاف: ١٣/١.

(٢٧) سورة الروم: ٢٢.

(٢٨) زاد المسير في علم التفسير: ٤٢٠/٣.

(٢٩) ينظر: نهاية الإيجاز: ١١٣.

(٣٠) ينظر: مفتاح العلوم: ٦٦٢.

(٣١) الإيضاح: ٣٧٠.

(٣٢) المطوّل: ٦٤٤، وعروس الأفراح: ٣٣٧/٢.

وَهُوَ أوْلى وَمِنْهُم مَنْ يقرّبها من الزّاي؛ لأنّه لـمّا لم يكن إدغامُ الصّادِ فِي الدّال قرَّبَها مِنْهَا ليحصلَ التشاكل»[٣٣].

ويطالعنا ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) واضعًا المصطلح تحت مسمى (المؤاخاة) التي تكون على مستويين: المعاني والمباني، أمّا المؤاخاة بين المباني، فتكمن في بنية السياق الشعري، واستشهد لذلك بقول أبي تمّام في وصف الرماح:

مثقفاتٍ سلبنَ العُرْبَ سُمْرَتَها والرومَ زرقتها والعاشِقَ القَضَفا[٣٤]

فقال: « إنَّ فيه نظرًا، وهو قوله العرب والروم ثمَّ قال: العاشق، ولو صحَّ أنْ يقول العشاق لكانَ أحسن. إذ كانت الأوصاف تجري على نهج واحد، وكذلك قوله سمرتها وزرقتها, ثمَّ قال: القضفا، وكان ينبغي أنْ يقول: قضفها أو دقتها»[٣٥].

المتأمل في تعليق ابن الأثير يجده يركز على التشاكل بين مفردات البيت، فما دام الحديث عن العرب والروم كان الأوْلى أنْ يقول: العشّاق ليتناسب ذلك ومعاني البيت، فضلًا عن قول الشاعر: القضفا لا ينسجم وسمرتها وزرقتها، وكان الأولى القول: والعشّاق قضفها، كل ذلك ناجم عن المواءمة داخل السياق الشعري.

أمّا المؤاخاة بين المعاني فتكمن في تجاذب المعنى مع ما يناسبه ليحصل التشاكل بينهما، فكلّما زاد التنافر حصل التباين في المعنى؛ لذلك أكّد ابن الأثير ضرورة ذكر اللفظ في مكانه الدالّ على المعنى المقصود، وآية ذلك استشهاده بقول الكميت:

---

(٣٣) اللباب في علل البناء والإعراب: ٤٧٩/٢.

(٣٤) ديوان أبي تمّام شرح الصولي: ٦١/٢. وفي رواية الصولي:

... سلبن الروم زرقتها والعرب أدمتها ...

(٣٥) المثل السائر: ٢٨٧/٢.

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة وإنْ تكامل فيها الدّلُّ والشنبُ[٣٦]

فلم يرَ ابن الأثير تشاكلًا في معاني هذا البيت؛ لأنَّ « الدلّ يذكره مع الغنج وما أشبهه، والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرًا، وهو مظنة الغلط؛ لأنّه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق, بحيث توضع المعاني مع أخواتها، لا مع الأجنبي منها»[٣٧].

في ضوء هذا الفهم فضّلَ الشاعر نصيب (ت ٨٥هـ) قول ذي الرمّة (ت ١١٧هـ):

لمياءُ في شفتيها حوَّةٌ لَعَسٌ وفي اللِّثاتِ وفي أسنانِها شنبُ[٣٨]

على قول الكميت السابق؛ وذلك لأنَّ فقدان الصلة بين (الانس) و(الشنب)، كان سببًا في تنحية قول الكميت، وهذا ما أكّده نصيّب عندما حاوره الكميت قائلًا له: « ماذا تحصي؟ قال: خطأك، فقد باعدت في القول، ما الأنس من الشنب»[٣٩].

كذلك أخرج رؤية ابنه عقبة من دائرة النظم الشعري، عندما قيل له: إنَّه يقول شعرًا؛ قال: « نعم، ولكن ليس لشعره قران»[٤٠].

وأشار ابن الزبير (ت ٧٠٨هـ) إلى مفهوم (التشاكل) الذي ورد عنده بمعنى التلاؤم والتناسب، ولا سيما عند تأمله سورة (الكافرون) التي وجد فيها تكرارًا لفت انتباهه، إلّا أنَّه خرّج هذا التكرار لصالح التشاكل والوصول إلى المقصد قائلًا: « للسائل أن يسأل عن تكرير ما ورد فيها؟ والجواب أنّها لم تتكرر فيها آية واحدة إذا اعتبرت أنّ كل آية منها تفيد من المعنى وتحرّر ما لا تفيده الأخرى بذلك التحرير، فكأنّها متباينة الألفاظ لتباين معانيها مع جليل التشاكل وعلي التلاؤم والتناسب»[٤١].

---

(٣٦) لم أجده في ديوانه، وأثبته المرزباني في موشحه: ٢٤٩، ٢٥١.

(٣٧) المثل السائر: ٢٧٦/٢.

(٣٨) ديوان ذي الرمّة: ٣٢/١، وفيه: (بيضاء) بدلًا من (لمياء) و(وفي أنيابها) بدلًا من (وفي أسنانها).

(٣٩) الرسالة الموضحة: ٢٢ -٢٣.

(٤٠) الشعر والشعراء: ٣٩٨.

(٤١) ملاك التأويل: ١١٥٠/٢.

في حين أطلق الحلبي (ت٧٣٠هـ) مفهوم التناسب على مدلول التشاكل، وخصَّ المعاني بهذا التآخي قائلًا: «والتناسب: هو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر»[٤٢].

وفي (كشف الأسرار) للبخاري الحنفي (ت ٧٣٠هـ) تجسّد مفهوم التشاكل عنده بمعنى المماثلة والتساوق بين الصفة والموصوف، إذ رأى أنَّه « لو كانَ الاسم الداخل عليه اللام للاستغراق لصحَّ نعته باسم الجمع فيقال: جاءني الرجل الطّوال ،كما يقال: جاءني الرجال الطوال. (قلنا) يجوز ذلك أيضًا فإنَّه يقال: أهلكَ الناسُ الدينارَ الصُّفرَ والدّرهمَ البيضَ،... إلّا أنَّ الأحسن أنْ ينعتَ باللفظ الفرد مراعاة للصورة ومحافظة على التشاكل بين الصفة والموصوف»[٤٣].

ويطالعنا النويري (ت ٧٣٣هـ) محتكمًا إلى قول بعض الحكماء من أنَّ العشق لا يقع إلّا لمجانس « وأنَّه يضعف ويقوى على قدر التشاكل. واستدل بقول النبي (ﷺ) (الأرواح جنود مجنّدة...)»[٤٤].

أمّا القزويني (ت ٧٣٩هـ) فقد أشار إلى مواطن الاستغراق الذي قسمه على ضربين: حقيقي وعرفي،[٤٥] إذ أبان أنَّ « استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع،... إذ معنى قولنا (الرجل): كل فرد من أفراد الرجال لا مجموع الرجال؛ ولهذا امتنع وصفه بنعت الجمع، وللمحافظة على التشاكل بين الصفة والموصوف أيضًا»[٤٦].

نفهم من قول القزويني أنَّ التشاكل بين المباني واجب؛ لأنَّ الذائقة العربية اعتادت وضع المفردة مع ما يلائمها، فلا نقول: الرجل طائعون، إلّا إذا قصدنا التغليب كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ

([٤٢]) حسن التوسل: ٢١٢.

([٤٣]) كشف الأسرار: ٢٢/٢.

([٤٤]) نهاية الأرب: ١٣٥/٢.

([٤٥]) ينظر: الإيضاح: ٥٥.

([٤٦]) نفسه: ٥٥.

﴿الْقَانِتِينَ﴾[٤٧]؛ لأنَّ هناك قصدية تكمن وراء هذا التغليب، إلّا أنَّ الشائع استعمال الكلام مع قرينة؛ كي يتحصل التشاكل سواء أكان على صعيد المباني أم المعاني؛ لذلك وقف العلوي (ت ٧٤٥هـ) عند مجازية اللفظ وحدّدَ ثلاثة مقاصد، ويهمنا المقصد الأول الذي أبان فيه « أنَّ اللفظة المجازيّة ربَّما كانت صالحة للقافية إذا كان الكلام شعرًا منظومًا، أو لأجل التشاكل في السجع إذا كان الكلام منثورًا»[٤٨].

كلام العلوي تحصيل حاصل؛ لأنَّ النظم ينبغي أنْ يتساوق مع قوافيه من ناحية إلتزام روي محدد وقافية مبنية على حرف معين.

والمتأمّل في خزانة الأدب للحموي (ت ٧٣٧هـ) يجد مرادفات عدّة كلّها تشير إلى التشاكل، قائلًا: « هذا النوع – أعني مراعاة النظير– يسمى التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والمؤاخاة، وهو في الاصطلاح أن يجمع الناظم أو الناثر أمرًا وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد، لتخرج المطابقة، ... إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوع أو ما يلائمه من أحد الوجوه»[٤٩].

فالملاحظ من قول الحموي أنَّ هناك فرقًا بين التشاكل والاختلاف، وآية ذلك إخراجه الطباق من دائرة التشاكل.

وورد مصطلح (التشاكل) بمعنى الانسجام والتساوق عند ابن الموقت الحنفي (ت٨٧٩هـ) وآية ذلك، أنّه رأى من الخطأ القول: أشتري العبيد الأسود؛ لأنَّ هذه الصياغة لا تحافظ على التشاكل اللفظي.[٥٠] وما يعضّد قول ابن الموقت ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

([٤٧]) سورة التحريم: ١٢.

([٤٨]) الطراز:٤٤/١.

([٤٩]) خزانة الأدب وغاية الأرب: ٢٩٣/١.

([٥٠]) التقرير والتحبير: ٢٣٦/١.

﴾[٥١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[٥٢]، وقوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٥٣].

لذلك رأى العيني (ت ٨٥٥هـ) أنَّ « المماثلة بين الشيئين إنّما تكون باعتبار الصورة والمعنى؛ لأنَّ كل محدث موجود بصورته ومعناه، وإنما تقوم المماثلة بهما، فالقدر عبارة عن التساوي في المعيار فتحصل به المماثلة صورة، والجنس عبارة عن التشاكل في المعاني فتثبت به المماثلة معنى»[٥٤].

وهذا ما اكّده البقاعي (ت ٨٨٥هـ) عندما علّق على قول رسول الله (ﷺ): (الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، ... الحديث) قائلًا: «التشابه: التشاكل بما يلتبس حتى لا يفصل فيه بين أحد الشيئين والآخر»[٥٥]. ثمَّ بيّن أنَّ التشاكل بين الأرواح راجع إلى قدرته تعالى وفعله ما يشاء؛ لأنَّ من شأن الأرواح التشاكل مع بعضها والتباين مع الآخرين.

ولم يخرج السيوطي (ت ٩١١هـ) عمّا حدّده الكرماني في سبب تسمية السور السبع (حم)، لما بينها من الاشتراك والتقارب في المقادير، فضلًا عن التشاكل في الكلام[٥٦].

أمّا المصري الحنفي (ت ١٠٦٩هـ) فقد أبان في حاشيته على البيضاوي أنَّ التشاكل اللفظي في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾[٥٧] القصد منه: « العطف اللفظي الذي يحصل به التشاكل لا المعنوي المشترك»[٥٨].

---

(٥١) سورة آل عمران: ٦٧، و٦٨، وسورة المائدة: ١٢٣.

(٥٢) سورة البقرة: ٣٥.

(٥٣) سورة البقرة: ٣٥.

(٥٤) البناية شرح الهداية: ٢٩٦/٨.

(٥٥) نظم الدرر: ١٣٩/٤.

(٥٦) الإتقان: ٣٨٧/٣.

(٥٧) سورة الإنسان: ١٦، قال تعالى: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾

(٥٨) عناية القاضي وكفاية الراضي: ٥٧/٢.

ما تقدّم يمثل رحلة في تراثنا العربي تقصينا من خلالها سير المصطلح وإشكاليته، الأمر الذي حتّم علينا أنْ نصوب وجهتنا تجاه الدارسين المحدثين كي نبيّن مدى توافقهم مع القدماء وطرائق تناولهم لهذا المصطلح وإشكاليته التي بانت عند نفر من الدارسين المغربيين، لذلك سأبدأ بتحديد دلالات المصطلح عند الدارسين العرب بدءًا من إطلالة القرن العشرين وحتّى يومنا هذا، فنتأمل ما قاله الشيخ أبو المعالي محمود شكري الآلوسي (ت ١٣٤٢هـ) في تعليقه على قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا﴾[٥٩] على قراءة نافع والكسائي، إذ رأى أنَّ تنوين (قوارير الثانية) لأجل التشاكل[٦٠].

بيد أنَّ الشيخ محمود مصطفى (ت ١٣٦٠هـ) نظر إلى التشاكل على أساس التوازن الإيقاعي بين العروض والضرب، ولا سيَّما في التصريع بزيادة في قول امرئ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعرفانِ وَرَسْمٍ خَلتْ آياتُه مُنذُ أزْمَانِ[٦١]

كان الأوْلى اللجوء إلى (القبض)[٦٢] إلّا أنَّ الشاعر عَدل عن ذلك بغية تشاكل العروض مع الضرب، الأمر الذي دفع الشيخ إلى القول: « فالعروض – هنا – هي كلمة (وعرفان) على وزن (مفاعيلن)، وقد عرفت أنّها لا تجيء في عروض الطويل إلا مقبوضة، فهي إنّما قُبلت هنا من غير قبضٍ ليحصل التشاكل بينها وبين الضرب»[٦٣].

كما ورد المصطلح في كتاب (التفسير القرآني للقرآن) لعبد الكريم يونس الخطيب (ت ١٣٩٠هـ) عندما حلّلَ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[٦٤] فقال:

---

(٥٩) سورة الإنسان: ١٥- ١٦.

(٦٠) ينظر: غاية الأماني: ٥٣/٢.

(٦١) ديوان امرئ القيس: ٤٨٧/٢.

(٦٢) القبض: «وهو حذف الخامس الساكن»، العمدة: ١٣٨/١.

(٦٣) أهدى سبيل إلى علمي الخليل: ١٥٤ - ١٥٥.

(٦٤) سورة الأنعام: ٢.

« تعقيب على المعطوف، وهو تعقيب فيه تراخٍ وامتدادٍ في مسافات الزمان والمكان بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا يُؤذن بالمفارقة البعيدة بين المتعاطفين اللذين كان من شأنهما التشاكل والتلاحم»[٦٥]. وبالمعنى نفسه ورد المصطلح عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٩١هـ)[٦٦].

أمّا الشيخ أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ) فيرى أنَّ التشاكل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦٧] قائم على « المقابلة بين الخير والشر ، وأنَّ الأول يكشفه الله ، والثاني بقدرة الله تعالى ، والتعبير بالمسّ في الأمرين من قبيل التشاكل اللفظي»[٦٨].

ويعلّق الشيخ محيي الدين درويش (ت ١٤٠٣هـ) على قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٦٩] قائلًا: « وتشاكل الجملتين أحسن من تخالفهما، وقد يقال: إنَّ في الرفع تخلصًا من تقدير العامل فلكلّ مرجّح فكان ينبغي التساوي لا أرجحية النصب، ويجاب بأنَّ مراعاة التشاكل أقوى مما ذكره»[٧٠].

كما ورد المصطلح عند المطعني (ت ١٤٢٩هـ) في قوله: « سمّوا التشاكل الواقع بين الحروف في أواخر الآي فواصل»[٧١].

وأكّد ذلك الدكتور مُحَمَّد عبدالله دراز في نظراته لآي القرآن الحكيم لما فيها من طرائف وحلل موشية

([٦٥]) التفسير القرآني للقرآن: ١٢٦/٤.

([٦٦]) بغية الإيضاح: ٨٩/١.

([٦٧]) سورة الأنعام: ١٧.

([٦٨]) زهرة التفاسير: ٢٤٥٨/١.

([٦٩]) سورة النحل: ٥.

([٧٠]) إعراب القرآن وبيانه: ٢٧٢/٥.

([٧١]) خصائص التعبير القرآني: ٢١٩.

وما فيها من « حسن التشاكل بين الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد»[٧٢].

أمّا في الدرس المعاصر فقد أفرد الدكتور مُحَمَّد مفتاح في كتابه (تحليل الخطاب الشعري) فصلًا لمفهوم التشاكل حدَّدَ فيه بدايات المصطلح قائلًا: « إنَّ أوَّل مَن نقل مفهوم التشاكل من ميدان الفيزياء إلى ميدان اللسانيات هو (كريماص) وقد احتل منذ ذلك الوقت هذا المفهوم لدى التيار السيميوطيقي البنيوي مركزًا أساسيًا، وكأي مفهوم جديد فإنَّ المهتمين تلقّوه بالمناقشة والتمحيص»[٧٣].

إنَّ المدقق في التراث العربي يجد هذا المصطلح حاضرًا، إلّا أنَّ الافتتان بالنهج الغربي دفع بعض الباحثين إلى إغفال ما لدى العرب، وقد أبانت الدراسة عن ذلك كلّه.

ثمَّ كشف الدكتور مفتاح عن تشكيلات هذا المصطلح من خلال تنقلاته بين المصطلحيين، إذ قصر (كريماص) على تشاكل المضمون، أمّا (راستي) فقد « عمَّمه ليشمل التعبير والمضمون معًا، أي أنَّ التشاكل يصبح متنوعًا تنوع مكونات الخطاب؛ بمعنى أنَّ هناك تشاكلًا صوتيًا وتشاكلًا نبريًا، وإيقاعيًا، وتشاكلًا منطقيًا، وتشاكلًا معنويًا»[٧٤].

المتأمل في تراثنا العربي يجد هذه الأشكال التي أشار إليها الدكتور مُحَمَّد مفتاح شاخصةً في طيّات كتبهم، ولكن من دون التصريح بها، أو وصفها تحت عنوانات محدَّدة، إذ أبان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) عن التشاكل اللفظي في قوله: « إلّا أنّي لا أزعم أنَّ سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني»[٧٥]. كما أشار ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) إلى التشاكل الصوتي في قوله: « وكان أبو عمرو إذا التقى الحرفان وهما من كلمتين على

---

(٧٢) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن: ١٥٩.

(٧٣) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص): ١٩، ووافقه الدكتور يوسف وغليسي في هذا التحديد، ينظر: إشكالية المصطلح: ٢٦٤.

(٧٤) تحليل الخطاب الشعري: ١٩ - ٢٠.

(٧٥) البيان والتبيين: ١٤٥/١.

مثال واحد متحركين أسكن الأول وأدغمه في الثاني، ولا يبالي أكانَ ما قبل الأول ساكنًا أو متحركًا»[٧٦].

أمّا ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) فقد أبان أنَّ التشاكل الذي يصحب بنية الكلمة من ناحية الإعلال في قوله: « حملوا بعض حروف المضارعة على بعض في نحو قولك: أَعِدُ، ونَعِدُ، وتَعِدُ؛ ألا ترى أنَّ هذه الأحرف الثلاثة محمولة على الياء في قولك: (يَعِدُ)؛ لأنَّ الواو من (يَعِدُ) حذفت لوقوعها بين ياء وكسرة، وحملت الهمزة والنون والتاء في هذا على الياء؛ فحذفت الواو معهن كما حذفت مع الياء لئلا يختلف الباب»[٧٧].

وأشار المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) إلى مشاكلة الألفاظ للمعاني قائلًا: « وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية... وكانَّ اللفظ مقسوم على رتب المعاني، وقد جعل الأخص للأخص والأحسن للأحسن»[٧٨]

وهناك نوعان من التشاكل أشار إليهما الباحث عبد الرحمن عبد القادر، وهما: المشاكلة النحوية[٧٩]، والدلالية[٨٠].

لم يكن القصد التعصب للعرب، إلّا أنَّني حاولت إرجاع الحق إلى أهله، كما قال الدكتور الشاهد البوشيخي: « الاهتمام بالمسألة المصطلحية اليوم، حينما كان في أمتنا قد ولّى وجهه كلية أو كاد شطر المصطلح الوافد، لا تشذُ أو لا تكاد تشذُّ عن ذلك مؤسسة أو فرد من مجامع إلى جامعات ومن معاهد ومراكز إلى لجن ومنظمات، كلّها تتسابق بتنسيق أو بدون تنسيق متنافسةً في تلقي المصطلح الوافد»[٨١].

---

(٧٦) السبعة في القراءات: ٦٨٣ - ٦٨٤.

(٧٧) سر صناعة الإعراب: ٣٨٥/١.

(٧٨) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي: ١١/١.

(٧٩) ينظر: المشاكلة بين اللغة والبلاغة: ٤٤.

(٨٠) نفسه: ٥٣.

(٨١) نظرات في المصطلح والمنهج: ٩.

ويطالعنا الدكتور عبدالله الغذامي الذي أفردَ كتابًا ناقش فيه مسألتي التشاكل والاختلاف في ضوء النظرية النقدية العربية. حاول في كتابه هذا الإشارة إلى مفهوم (التشاكل) تحت مسمى (المشاكلة) التي عدّها مصطلحًا زاحم « مفهوم (الاختلاف) وسابقه لاحتواء النص في التصور وفي الإنشاء»[٨٢].

آثر الغذامي دراسة هذا المصطلح؛ لكونه « يهدف إلى جعل الإبداع نظامًا انضباطيًا يتشاكل النص، بوصفه لغة مع الأشياء بوصفها واقعًا مقررًا سلفًا»[٨٣].

نفهم من قوله أنَّ التشاكل يمثل قتلًا للإبداع؛ لأنَّ الناقد الباحث عن التشاكل سواء أكان في اللفظ أم في المعنى يحرم المتلقي لذّة الشعور بجمالية النص، لذلك قال: « وإنَّه لمِن نعم الله أنَّ هذا المفهوم لم يتغلغل في التجربة الإبداعية بوصفها ابتكارًا وإنشاءً، وذلك لأنَّ الإبداع لا يمكن أنَّ يتأسس على المطابقة والمشاكلة، ولو شاكل النص واقعه الخارجي لتحول إلى وثيقة وصفية وصار خطابًا علميًا أو تاريخيًا»[٨٤].

لذلك رأى الغذامي أنَّ التشاكل كان سببًا في رفض إبداع أبي تمّام؛ بسبب خروجه على مقررات عمود الشعر الملزمة بموافقة المستعار منه للمستعار له، لذا عزا الغذامي سبب ذلك إلى « ترسب تصورات المشاكلة وغلبتها على الذهن الثقافي، وجرى رفض أبي تمّام من أهل المشاكلة كالآمدي ومَن جاء بعده في خطّ طويل يمتد إلى المرزوقي شارح الحماسة، وكذلك صارت دعوات الرفض ضد الشعر الحديث، وهي تعود إلى غلبة مفهوم المشاكلة في عقول الرافضين»[٨٥].

لم تكن دعوة الغذامي هذه ترمي إلى إهمال المصطلح، بل تفعيله بما يتناسب والنمو الفكري والتطور الحضاري؛ لأنَّ الإمساك بالمقولات الجاهزة يمثّل قصورًا في الرؤية ؛ لأنَّ « المصطلح القديم الذي كان

---

(٨٢) المشاكلة والاختلاف: ٦.

(٨٣) نفسه: ٦- ٧.

(٨٤) نفسه: ٧.

(٨٥) المشاكلة والاختلاف: ٧.

فعّالًا ذات يوم ثمَّ تُرك أو أهمل حتى نسي، وربّما جدّت ظروف تستدعي استحياءه مرّة أخرى»[٨٦].

أمّا عبد الرحمن عبد القادر، فقد درس التشاكل تحت مسمى المشاكلة، وبحثه في الدرسين اللغوي[٨٧] والبلاغي[٨٨]، ثمَّ تحديد ضروب التشاكل معزّزًا ذلك بشواهد من القرآن والشعر.

واللافت للنظر أنَّ المصطلح قد استقرَّ عند القدماء، إلّا أنّني وجدت الدكتور عبد الملك مرتاض يصف المصطلح بالاضطراب، ويعزو ذلك إلى حداثة نشأته، لذا فهو بحاجة إلى « بلورة وصقل وتدقيق، ولعل من أجل ذلك اجتهدنا نحن في التصرف فيه، فذهبنا إلى اقصى ما يمكن الذهاب إليه لدى التطبيق»[٨٩].

ضبابية المصطلح واضطرابه على الرغم من وضوح دلالته المعجمية والمصطلحية، تعود إلى الآتي:

أولًا: العفوية في استقبال المصطلح، الأمر الذي وقع الدكتور عبد القادر الفاسي إلى القول: « إنَّ أهم ما يتّسم به وضع المصطلح هو طابعه العفوي، وهي عفوية لا تقترن بمبادئ منهجية، ولا بالاكتراث بالأبعاد النظرية للمشكل المصطلحي، وقد قادت هذه العفوية إلى كثير من النتائج السلبية، وفي مقدمتها الاضطراب والفوضى في وضع المصطلحات وعدم تناسق المقابلات المقترحة للمفردات الأجنبية»[٩٠].

ثانيًا: تلقف المصطلح عن طريق الترجمة الخاطئة، وعدم البحث في التراث، ولا سيّما في الخطاب السيميائي؛ لأنَّ ترجمة مصطلحاته اتسمت بالاضطراب، الأمر الذي حال دون إيصال المفهوم إلى المتلقي.

---

(٨٦) أمّا قبل: (افتتاحية رئيس التحرير): ٤.

(٨٧) ينظر: المشاكلة بين اللغة والبلاغة: ١ - ٦.

(٨٨) نفسه: ٦٢.

(٨٩) نظام الخطاب القرآني: ١٥٨.

(٩٠) اللسانيات واللغة العربية: ٣٩٤.

ثالثًا: التسرع في تبني التيار الأدبي، فضلًا عن غياب الرغبة الحقيقية في الفهم والتدقيق المصطلحي.[٩١]

في ضوء هذا الخلط، وجدنا مفهوم (التشاكل) ينضوي تحت مسمى (التناظر) عند الدكتور سعيد علوش[٩٢]، و(الايزوطوبيا) عند أنور المرتجى[٩٣]، وشايعه في هذه التسمية رشيد بن مالك في قاموسه، فاطلق على التشاكل (الايزوتوبيا)[٩٤]. أمّا الدكتور مُحَمَّد عناني فقد ورد المصطلح عنده بمسميين: الأول: التناظر الموضوعي، والآخر: التناظر الدلالي[٩٥].

هذه التعددية للمصطلح الوافد ناتجة من الفهم الخاطئ لمعناه القاموسي، فضلًا عن عدم إيجاد المصطلحيين لمقابل في العربية يتناغم والمصطلح الواحد، ويؤدي وظائفه التي وُضِع من أجلها، هذا الأمر دفع الباحثين إلى البحث عن مسميات تتوافق ومفهوم التشاكل ظنًّا منهم أنَّهم أصابوا المقصد الحقيقي لهذا المفهوم؛ لذلك وجدنا بسّام بركة يطلق عليه (تكرار أو معاودة لفئات دلالية)[٩٦]، هذه التسمية لا يمكن العمل بها؛ لأنّها لا تتوافر وشروط المصطلح المتضمنة أنْ يكون مختصرًا وواضح الدلالة، ووقع مبارك في الإشكالية نفسها عندما أطلق عليه (تكرار وحدات لغوية)[٩٧].

هذا التخبط المصطلحي وعدم الاستقرار على صيغة واحدة، جعل المصطلح يفقد مشروعية الشيوع والاستقرار، علمًا أنَّ واجب المصطلحي العمل على توحيد المصطلح عن طريق الاتفاق سواء أكان على الصعيد الجامعي أم المؤسساتي؛ لأنَّ هذه الفوضوية تسهم في قتل المصطلح وإبعاده عن ساحة الدرس المصطلحي، هذه الأمور دفعت الدكتور يوسف وغليسي إلى إفراد مبحث خاص بالتشاكل ضمن الحقل

---

(٩١) ينظر: مقدّمة في السيميائية: ٧١.

(٩٢) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ١٥١.

(٩٣) ينظر: سيميائية النص الأدبي: ٤٠.

(٩٤) ينظر: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص: ٩٣.

(٩٥) ينظر: المصطلحات الأدبية الحديثة: ٤٧.

(٩٦) ينظر: معجم اللسانية: ١١٦.

(٩٧) ينظر: معجم المصطلحات الألسنية: ١٥٦.

السيميائي [٩٨]، إذ حدّدَ جملة أمور كشف من خلالها صعوبة الاتفاق على مفهوم محدد للتشاكل منها:

١. المرجعية العلمية، غير الأدبية لمصطلح (**Isotopie**).

٢. اقترانه بمصطلحات أخرى، قد لا يقوم إلّا بها أو عليها كالتقابل أو اللاتشاكل، والتباين.

٣. التباسه بمصطلح آخر مماثل له هو (**Isomorphisme**) .

٤. شيوع (التشاكل) و(المماثلة) في البلاغة العربية القديمة، لا سيّما علم البديع وتداخله مع مفاهيم الإعادة اللفظية والاشتراك اللفظي أو المعنوي.

٥. شيوع المصطلح في الدراسات الشعرية والسردية على السواء بمعنيين متمايزين نسبيًا.

٦. طغيان التعامل الإجرائي العربي معه الموصول بالدرس البلاغي القديم[٩٩].

لا شكَّ أنَّ عناية المصطلحيين العرب بالمصطلح الوافد وعدم الالتفات إلى ما هو مدوّن في التراث العربي سبَّبَ هذه الإشكالية التي أدّت إلى اضطراب المصطلح وتعدده.

خلاصة القول في مصطلح (التشاكل) عمدت إلى هذه الخطاطة التي تبيّن ما يأتي:

([٩٨]) ينظر: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد: ٢٦٤.

([٩٩]) ينظر: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد: ٢٦٨ - ٢٦٩.

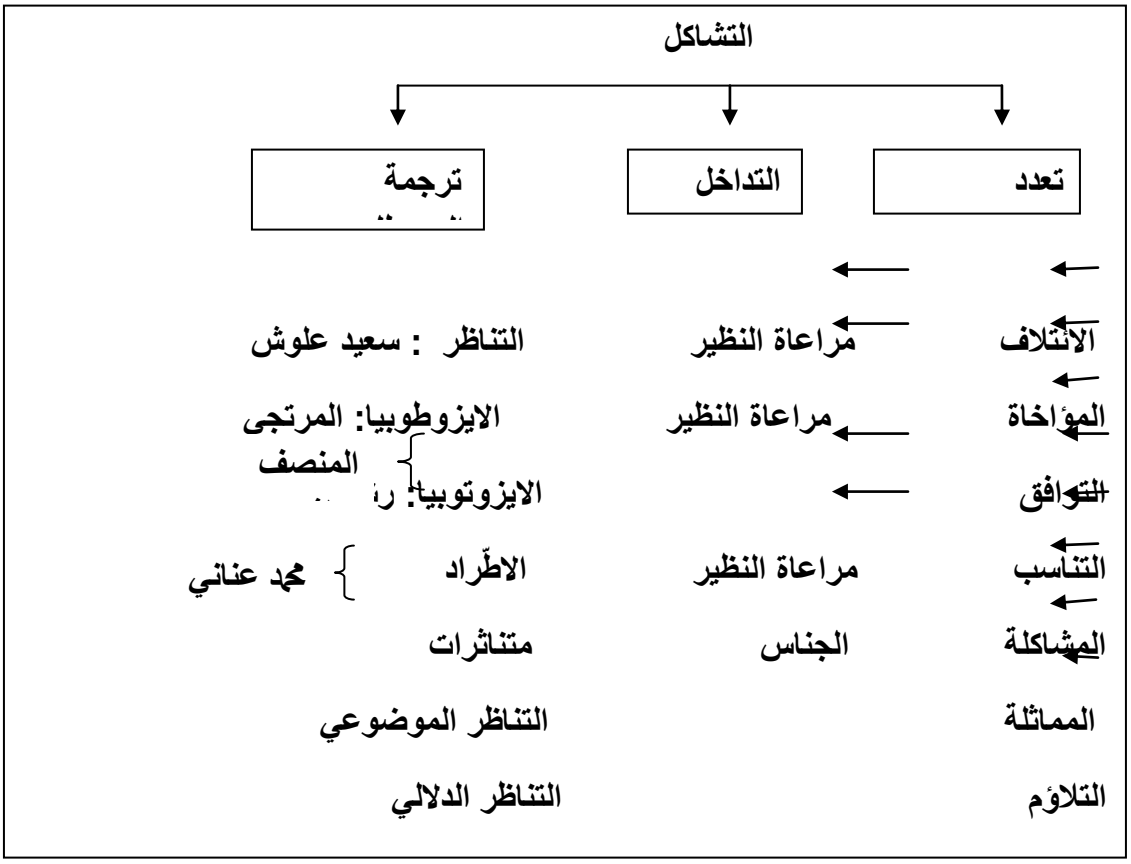

التشاكل
تعدد
التداخل
ترجمة
الائتلاف
المؤاخاة
التوافق
التناسب
المشاكلة
المماثلة
التلاؤم
مراعاة النظير
مراعاة النظير
مراعاة النظير
الجناس
التناظر : سعيد علوش
الايزوطوبيا: المرتجى
المنصف
الايزوتوبيا:
الاطّراد
محمد عناني
متناثرات
التناظر الموضوعي
التناظر الدلالي